المحاضرة الثامنة: السيرة الشعبية.

تمهيد:

إن البحث في مختلف المراجع العربية والأجنبية التي خصت جنس السيرة الشعبية العربية بالدراسة والنقد، يضعنا أمام معضلة شديدة؛ وهي صعوبة تحديد مفهوما خاصا بها نظرا لتداخله مع مفاهيم أخرى تشترك معه في بعض الخصائص مثل: الأسطورة، الخرافة، الحكاية الشعبية، الملحمة، لذلك سنحاول أن نستعرض بعض هذه المفاهيم باختصار وبطريقة تساعد على الوصول إلى مفهوم واضح للسيرة الشعبية.

وسنلاحظ مع "عبد المالك مرتاض" أن ((المستعملين للغة العربية في مألوف العادة يلبسون معنى الخرافة بمعنى الأسطورة، وربما معنى الأسطورة بمعنى الحكاية الشعبية ذات الأصول التاريخية. ويعود ذلك ـ في رأينا ـ إلى قصر التجربة العربية حول هذه المفاهيم بالذات، كما أن أدب الخرافة في الأدب العربي قليل إذا قيس بالأدب الواقعي، أي الأدب القائم على الخيال المطبوع بما يشبه الواقع. أما الأساطير فقد قضت عليها تعاليم الديانة الإسلامية بما صقلت من عقيدة، ورقت من تفكير...))[1].

ويبدو أن هذا الرأي على صواب في قضية قصر التجربة العربية حول مفاهيم "الأسطورة والخرافة والحكاية الشعبية"؛ إذ أن العديد من البحوث العربية التي تتناول مثل هذه المواضيع ـ على محدوديتها كما ونوعا ـ لم تصل إلى تحديد دقيق أو شبه دقيق لمفهوم "السيرة الشعبية"، الذي يتداخل بشكل كبير مع مفاهيم أخرى. على أنه من الملاحظ وجود هذا التداخل أيضا في أبحاث وأعمال غير عربية، الأمر الذي سيدفعنا إلى توضيح مفهوم الأسطورة أولا بطريقة شاملة وشبه دقيقة، والانطلاق منه لتوضيح مفهوم "السيرة الشعبية"، ولكن أولا سنلقي نظرة على ما تقوله بعض المعاجم والموسوعات في هذا الصدد، ونقول "بعض" لأن المواد المتعلقة بالمفاهيم التي نود توضيحها هنا، تتوزع على عدد كبير من المعاجم والقواميس، لذا سننتقي منها ما يناسب وجهة هذا البحث تحديدا، ولنبدأ من مفهوم السيرة.

أولا ـ السيرة في اللغة:

السيرة في لسان العرب من مادة "سَ يَ رَ"، ولها معان متعددة: ((فالسيرة هي السنة، وقد سارت وسرتها، والسيرة الطريقة، يقال سار بهم سيرة حسنة، والسيرة الهيئة، وفي التنزيل العزيز: (سنعيدها سيرتها الأولى). وسَير سيرة: حدث حديث الأوائل. وسار الكلام والمثل بين الناس: شاع، ويقال هذا مثل سائر.))[2]، والسيرة بهذا المعنى الذي أورده ابن منظور في القرن الرابع عشر ميلادي، يبدو محدودا جدا على المستوى الدلالي بالنسبة للمصطلح، فهو لا يفيد إطلاقا في تحديد مفاهيم تبدو معاصرة إلى حد كبير، كالسيرة الشعبية، والسيرة الذاتية، وبدرجة أقل معاصرة: السيرة النبوية، والتراجم والمناقب.

وبالتالي، فإننا حين نقرأ مادة " سيرة " في الموسوعة العربية الميسرة مثلا، نلاحظ ـ بوضوح ـ أثار هذه المحدودية على شكل تخبط في تحديد معنى السيرة بشكل دقيق، فهي تضع: ((السيرة النبوية، وترجمة حياة

---

[1] ـ عبد المالك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 16.

[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، مج 4، مادة: (س ي ر)، ص 390.

رجل أو امرأة أو كليهما معا، والسيرة المحفورة على جدران القبور والمعابد عند قدماء المصريين والأشوريين...، وترى السير في محاورات أفلاطون، وفي أعمال بلوتارك، وتلاحظ وجود كتب رائعة عن سير الأبطال والقادة والملوك وغيرها...))[3]، فهي تضعها كلها في خانة واحدة.

ثانيا ـ السيرة الشعبية في الاصطلاح:

بينما يتحدث معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية عن نوع واحد فقط من "السيرة" هو: السيرة الشخصية BIOGRAPHY": ((تعطي السيرة الشخصية وضعا كاملا لحياة الفرد بوصف وتحليل شخصيته وطريقة سلوكه وبيئته. وهي تفيد الدراسات العلمية في دراسة الحالة، وفي المنهج العلمي الاجتماعي على وجه العموم ... وينبغي قبل الاعتماد على هذا النوع من الوثائق وتحليلها تحليلا دقيقا للتأكد من صدقها))[4].

ويبدو أنه لا يوجد أي توجه حقيقي فيما اطلعنا عليه من بعض الدراسات والبحوث المختلفة لتحديد مفهوم السيرة بشكل دقيق. فدارسو السيرة النبوية مثلا يتحدثون عن هذا النوع من السير، دون أي محاولة لمناقشة مفهوم السيرة، وكأن هذا المفهوم محدد دلاليا بشكل واضح، وكذلك الأمر بالنسبة للمناقب والتراجم، بينما نجد أن كثيرا من دارسي السيرة الشعبية، وخاصة من العرب، يمزجون بين هذا المفهوم، وبين غيره من المفاهيم التي يمكن أن تتقاطع معه مثل الملحمة والأسطورة والحكاية الشعبية دون أن يحاولوا بشكل دقيق فصل هذا المفهوم عن غيره، وتحديد دلالته بشكل دقيق.

ويمتد هذا الخلط ليشمل بعض دارسي السير العربية من الأجانب، إذ نجد أن أحدهم قد اكتفى بالإشارة على هامش الصفحة الأولى من دراسته إلى أن:((السيرة جمعها سير، تترجم في أوربا بطرق مختلفة، هي: épopée, folk épices, folk book, folk roman, folk romance saga))[5]، ونجد باحثا آخرا يقول: ((يستخدم الباحثون العرب ـ عادة ـ المصطلح الكلاسيكي: سيرة أو القصة للدلالة على ما نقترح تعريفه بالملحمة "الشعبية"...))[6]. وفي ثنايا نفس الدراسة نجد أن المؤلف يتحدث عن "التقاليد الملحمية الشعبية العربية" للدلالة على مجموعة من السير بينها سيرة سيف بن ذي يزن وسيرة عنترة بن شداد[7].

---

[3] ـ الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، بيروت، القاهرة، تونس، ط2، 2001، مج 3، مادة سيرة، ص1423.

[4] ـ أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1991، مادة: سيرة شخصية - BIOGRAPHY، ص 47.

[5] ـ MADEYSKA DANUTA. THE LANGUEGE AND STRUCTURE OF THE SIRA. QUADEMI DI STIDI ARABI. 9. 1991. p.193

[6] ـ GIOVANNI CANOVA. ASPECTS DE LA TRADITION EPIQUE VIVANT EN EGYPTE ET SYRIE. ACTES DE LA 1 ERE TABLE RONDE INTERNATIONNALE SUR LA GESTE DES BENI HILAL. 1980. INSTITUT NATIONNAL D'ARCHEOLOGIE ET D'ARTS. TUNIS. p.29.

[7] ـ *Op.cit*. p.p.29-39.

إذا، تجدر الإشارة من خلال الملاحظات السابقة إلى نقطتين، الأولى: هي عمق الانزياح الدلالي الحاصل على مستوى مفردة " سيرة " في اللغة العربية، أثناء الفترة الفاصلة بين ابن منظور وأحدث الدراسات المعاصرة. والأخرى: هي ذلك الغموض الكبير على مستوى الدلالة الدقيقة لمفهوم السيرة في العصر الحاضر.

وقبل الشروع في نحت مصطلح "السيرة" بالطريقة التي تناسب بحثنا هذا. يجدر بنا أن نشير إلى نقطة عساها أن تكون هامة، هي أن نفس الغموض على مستوى المفاهيم والمصطلحات يمتد ليشمل مفاهيم أخرى سنتحدث عنها هنا. ذلك أن أحد أهم المفاهيم والمصطلحات التي سنستخدمها بكثافة في هذا البحث هو مفهوم الأسطورة.

ثالثا ـ بين السيرة الشعبية والأسطورة:

إذ نجد أن مادة " سَ طَ رَ" يسطر، في لسان العرب مثلا تقول: ((السطر: الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر، وقال الزجاج في قوله تعالى: ((وقالوا أساطير الأولين))، معناه سطره الأولون، وواحد الأساطير أسطورة كما قالوا لأحدوثة وأحاديث. وسطر: يسطر إذا كتب، قال الله تعالى: ((ن • والقلم وما يسطرون))، أي وما تكتب الملائكة. وقد سطر الكتاب يسطره سطرا ... كتب. والأساطير: الأباطيل، والأساطير: أحاديث لا نظام لها... وسطرها: ألفها.))[8]. بينما نجد "مادة الأسطورة" في الموسوعة العالمية تتحدث عن الأسطورة في البداية على أساس أن ((الجميع يهتمون بدراسة الأسطورة، ولكن الأسطورة ـ حتى وان تم تعريفها أو تحليلها بمائة طريقة ـ إلا أنها تظل بعيدة كل البعد عن الوضوح. وبالطريقة نفسها، فان السؤال حول معنى الأسطورة ووظيفتها، خاصة بالنسبة للمجتمعات البدائية أو القديمة، قد أجيب عنه بعدة إجابات، وإجابات جد متعددة، إلى درجة أنه لا يمكن لإحداها فرض نفسها، وإقصاء باقي الإجابات))[9]. وبالتالي فان واضع مقالة "الأسطورة" في هذه الموسوعة قد حاول مقاربة مفهوم الأسطورة من زوايا مختلفة: فلسفية لسانية، اثنو- سيكولوجية...، بحيث نكتشف فعلا أن هناك عدة استخدامات لمفهوم الأسطورة ينسجم كل منها مع الإطار العلمي الذي يقترحه.

وبالتالي، فان هذه الاستخدامات قد تكون مختلفة عن بعضها قليلا أو كثيرا، إلا أننا لا نستطيع أن نفضل أحدها على الآخر إلا من خلال الزاوية التي تنظر منها إلى تعريف الأسطورة. ((فصراع التأويلات على أشده فيما يتعلق بالأسطورة، إذ نجد طرحين لرأيين يتواجهان: أحدهما يقول أن حقيقة الأسطورة، وكل حقيقة، ما هي إلا نتيجة للدلالة أو المعنى، والآخر يقول أن خلق الأساطير أو إنتاجها، ما هي إلا تنويع منطقي، وتمرين في التنظيم، ونشاط تجميعي. وللأسطورة طريقتها في التعبير، وهي طريقة منطقية تقوم على التمييز، التقابل، التوافق كأي تفكير منطقي. والأهم ليس الطريقة بل هو الشكل وهو الأساس: فالأسطورة تقول شيئا ما لشخص ما عن شيئا ما))[10].

---

[8] ـ ابن منظور، لسان العرب، مج 4، مادة: (س ط ر)، ص 263.

[9] ـ . PP.526. VOL.11. ENCYCLOPAEIA UNIVERSALISE. MYTHE.P RICOEUR

[10] ـ *Op.cit*. p. 526.

وإذا كانت هذه الملاحظة تساعدنا على تثبيت فكرة الانزياح الدلالي ـ التي أشرنا إليها قبل قليل ـ على مستوى بعض مفردات اللغة العربية، فإنها تساعدنا أيضا على ملاحظة أن نفس المفهوم أو المصطلح يستخدم بأشكال وطرق تختلف عن بعضها أحيانا حسب السياق الدلالي المعاصر الذي توجد فيه.

إن تعدد واختلاف السياقات التي تستخدم المصطلحات مثل: السيرة الأسطورة، الخرافة، الملاحم والحكاية الشعبية، يفرض على أي باحث فرقا دلاليا يصل إلى حد الاختلاف في تحديد نوع عمل محدد على المستوى النظري، فسيرة "سيف بن ذي يزن" مثلا حكاية خرافية بالنسبة لفراس السواح[11]، ونفس السيرة تقع بين الأسطورة والحكاية الشعبية ذات الأصول التاريخية لدى باحث آخر[12]، وهي "سيرة ملحمية " في موسوعة الفلكلور والأساطير العربية[13]، بينما يعنون باحث آخر مقال له بـ : " La geste du roi Sayf "[14]، وكلمة " La geste " جمعها "Les gestes"، وهنا تأتي بمعنى ((المآثر، أو المفاخر))[15]، وفي النهاية نجد باحثا آخر يعتبر أن ((السيرة الشعبية العربية فن مستقل بذاته، وله بناؤه الفني الخاص به، وله أهدافه الفنية والاجتماعية والسياسية التي تميز بها))[16].

وإذا كانت إشكالية المفاهيم تمر بدون تحديد في بعض الدراسات الأدبية الحديثة كالمواد الموجودة في الموسوعات، أو في بعض المقالات، وتأخذ حيزا كبيرا في دراسات أخرى، فان الإشكاليات المشار إليها سابقا ستجبرنا على أن نكون انتقائيين ـ أكثر من اللازم أحيانا ـ بحيث نقتطف من جميع الدراسات المتوفرة بين أيدينا أبرز العناصر التي تساعدنا على حصر المفاهيم التي سنستخدمها في هذا البحث، وخاصة مفهومي السيرة والأسطورة، دون التوغل في تفاصيل كثيرة قد لا تكون لها جدوى فعلية في هذا المقام.

رابعا ـ بين السيرة الشعبية والملحمة:

ويبدو أن تحديد مفهوم الأسطورة على تشعبه، يظل أسهل من تحديد مفهوم الملحمة، إذ أن مؤلف مادة الملحمة[17] أو " Epopée " في الموسوعة العالمية، على سبيل المثال، يحاول أن يقول كل شيء عن الملحمة دون أن يحاول تحديد خصائصها، فهو يتحدث عن ضرورة إعادة النظر في التعريفات المعطاة لهذا

---

[11] ـ فراس السواح، الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دار علاء الدين، سورية، ط2، 2001، ص16.

[12] ـ عبد المالك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، ص 11-17.

[13] ـ شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، مادة: سيف بن ذي يزن، دار العودة، بيروت، ط1، 1982، ص410.

[14] ـ LA GESTE DU ROI SAYF. P. 181..CHILHOD J

[15] ـ سهيل إدريس، عبد النور جبور، المنهل: قاموس فرنسي ـ عربي، دار الآداب ، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ص 484.

[16] ـ فاروق خورشيد، أدب السيرة الشعبية، الشركة العالمية للنشر، لونجمان ، مصر، 1994، ص 94.

[17] ـ E.U. PP. 375-380.. VOL.6. EPOPEE.YOSMIDA A

المفهوم، دون أن يعطي تعريفا جديدا له. كما تحدث عن الإشكاليات التي تحيط به وعن وظائف " الملاحم " في المجتمعات القديمة وتلك الأحدث منها، وابتعد قدر الإمكان عن تحديد هذا المفهوم، رغم أنه أشار إلى أن الشكل الشعري هو واحد من ملامح الملحمة الأساسية، خاصة في الحضارات القديمة، إذ ((يجب أن نقر أنه بسبب ازدهار الشعر الملحمي في الشرق الأدنى، ظهر هذا الصنف في اليونان))[18]، وفي مكان آخر، فإن: ((الملحمة قصة شعرية طويلة ذات اهتمامات بطولية وقد تكون الملحمة مدونة أو شفاهية، كما قد تجمع بين الخصيصتين أو المجالين... وعادة ما تولد الملحمة من التقاليد الأدبية الشفوية...))[19].

وإذا كـان الشكل الشعري أحد ملامح الملحمة فعلا، فإنه يمكن القول ـ بشكل أو بآخر ـ أن الملحمة تختلف عن السيرة الشعبية العربية من حيث الشكل على الأقل، إذ أن السير الشعبية تحتوي على كثير من المقاطع المصاغة شعرا، ولكن يمكننا حذف كل المقاطع الشعرية منها بحيث لن يؤثر ذلك على بنية السير وحبكتها، إلا تأثيرا طفيفا يمكن تجنبه بالاستعاضة عنها بالمقاطع الشعرية المهمة ـ وهي قليلة ـ بعدة أسطر. وبالتالي فانه يمكن استبعاد هذا المفهوم من إطار الدراسة، إلى أن نعثر على أدوات أكاديمية أفضل تمكننا من مناقشة علاقة الملحمة بالسيرة الشعبية العربية.

بعد الاطلاع على العديد من الدراسات الأدبية التي تناولت ثلاثية "الأسطورة الخرافة، والحكاية الشعبية"، ارتأينا هنا تثبيت مفهوما للأسطورة عرضه الباحث فراس السواح في كتابه[20]، والانطلاق منه لتوضيح مفهوم السيرة الشعبية على اعتبار أن هذا المفهوم يحتوي على عدد كبير من العناصر المهمة التي يمكن اعتبارها مادة خامة جديرة بالذكر والدراسة. إذا، يتحدث عن الأسطورة، على الشكل التالي:

1 – من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة، تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليها، وغالبا ما يجري صياغتها في قالب شعري يساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية وتتداول شفاهة، كما يزودها بسلطان على العواطف والقلوب لا يتمتع به النص النثري.

2 – يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة، غير أن خصيصة الثبات هذه لا تعني الجمود أو التحجر، لأن الفكر الأسطوري يتابع على الدوام خلق أساطير جديدة ولا يجد غضاضة في التخلي عن تلك الأساطير التي فقدت طاقتها الإيحائية، أو تعديلها.

3 – لا يعرف للأسطورة مؤلف معين؛ لأنها ليست نتاج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها، ولا تمنع هذه الخصيصة الجمعية للأسطورة من خضوعها لتأثير شخصيات روحية متفوقة، تطبق أساطير الجماعة بطابعها وتحدث انعطافا دينيا جذريا في بعض الأحيان.

---

[18] ـ *Op.cit*.. p. 378.

[19] ـ شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، مادة: الملاحم تعريفها وخصائصها، ص 622.

[20] ـ فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ص 12- 14.

4 – تؤدي الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسة في الأسطورة، فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملا أو ثانويا لا رئيسا.

5 – تتميز الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة بالجدية والشمولية، وذلك مثل التكوين والأصول والموت والعالم الآخر، ومعنى الحياة وسر الوجود، وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد. إن هم الأسطورة والفلسفة واحد، ولكنهما تختلفان في طريقة التناول والتعبير، فبينما تلجأ الفلسفة إلى المحاكمة العقلية وتستخدم المفاهيم الذهنية كأدوات لها، فان الأسطورة تلجأ في أغلب الأحيان إلى الخيال والعاطفة والترميز وتستخدم أيضا الصور الحية المتحركة.

6 – تجري أحداث الأسطورة في زمن مقدس هو غير الزمن الحالي، ومع ذلك فإن مضامينها أكثر صدقا وحقيقة ـ بالنسبة للمؤمن بها ـ من مضامين الروايات التاريخية. فقد يشكك هذا المؤمن بأية رواية تاريخية ويعطي لنفسه الحق في تصديقها أو تكذيبها.

7 – ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه. وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار هذا النظام الديني، وتتحول إلى حكاية دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الشبيهة بالأسطورة.

8 – تتمتع الأسطورة بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم.

اعتمادا على ما سبق أعلاه، استطاع "فراس السواح" أن يخلص إلى التعريف التالي حيث يقول: أن ((الأسطورة هي حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان)) [21].

سوف يساعدنا هذا التعريف على تمييز النص الأسطوري عن غيره من النصوص المشابهة له، والمتداخلة معه، كما أنه يصلح ـ من خلال السرد المفصل لمكونات الأسطورة ـ لأن يكون نقطة انطلاق جيدة لتحديد مفهوم للسيرة الشعبية، وسوف نقوم بمقارنة مكونات الأسطورة بالسيرة الشعبية نقطة بنقطة:

1 – تتفق السيرة الشعبية العربية مع الأسطورة من حيث الشكل: فهي قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليها، ولكنها تصاغ عادة في قالب نثري يتخلله الشعر.

2 – السيرة الشعبية تحافظ ـ كالأسطورة ـ على ثباتها عبر فترة طويلة من الزمن وتتناقلها الأجيال طالما حافظت على طاقتها الإيحائية.

3 – السيرة الشعبية مجهولة المؤلف أيضا، ويمكن اعتبارها نتاج خيال جمعي. رغم نسبة بعض السير الشعبية إلى رواة محددين، غالبا ما يكونون مجهولي الهوية. وربما تنسب إلى شخص معروف تاريخيا، مثل نسبة سيرة عنترة بن شداد إلى الأصمعي.

4 – تختلف السيرة الشعبية عن الأسطورة بأن الإنسان هو البطل الرئيسي أو صاحب الأدوار الرئيسية وحتى الثانوية، وإذا وجدت الآلهة، فإن دورها مكمل يكاد ينحصر في الدعم والتوفيق.

---

[21]ـ المرجع السابق، ص 14.

5 ـ لا تعتمد السيرة الشعبية في موضوعاتها وأهدافها على موضوعات الأصول: من أين؟ والى أين؟ ومعنى الحياة والوجود، بقدر ما تركز على بطل نموذجي تسرد وقائع حياته، وتجعل مضامينها مرتبطة بأهداف البطل وكيفية وصوله إليها.

6 ـ إذا كان الزمن في الأسطورة مقدسا، ومختلفا عن الزمن الحالي، فإنه ليس كذلك في السيرة الشعبية فالزمن المقدس بالنسبة للأسطورة هو زمن الأصول والبدايات، وهي إما بدايات أو أحداث تحدث لمرة واحدة بل أن بعض الأساطير ((لا يجب أن تتلى إلا في زمن مقدس))[22]. وهو زمن يبدو مفارقا للزمن الحالي أو الزمن الدنيوي العادي، وإن احتوت على أحداث لا تاريخية. بينما نجد أن زمن السيرة الشعبية لا يفرض على مسامعها تصديق المضمون تصديقا إيمانيا أعمى. فالسيرة تروى ـ في نهاية المطاف ـ لأخذ العبرة منها وكذا الترفيه عن متلقيها. كما أن أحداث السيرة وأهدافها تتدرج وتتأطر ضمن الزمن العادي دون أن تأخذ صفة الحضور الدائم كما هي الحال مع الأسطورة.

7 – قد ترتبط السيرة الشعبية بنظام ديني معين، ولكنها ـ على عكس الأسطورة ـ ليست جزء من البنية الاعتقادية للدين، كما أنها لا ترتبط بأي نظام طقسي ديني، وهي قصة دنيوية بامتياز، وإن كانت تعتمد في حبكتها على عناصر دينية. وبالتالي، فإنها لا تكتسي لدى القارئ أو المروي له أي نوع من القداسة الدينية، ولا تتطلب أي نوع من الاعتقاد الجازم بصحتها.

خامسا ـ بين السيرة الشعبية والسيرة النبوية:

ولدينا في إطار المنظومة الدينية الإسلامية ما يصلح أساسا للمقارنة من زاوية هذه النقطة: إنها السيرة النبوية. فهي كأي سيرة أخرى تتحدث عن مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) وحياته ومماته، وتتناول كذلك نسبه ونشأته، ونزول الوحي عليه ... إلى غاية انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولكن هذه السيرة تتميز عن بقية السير الشعبية الأخرى، خاصة تلك التي تناولت أشخاصا محددين ومعروفين تاريخيا مثل: سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد... بما يلي:

أ) الراوي أو الرواة معروفون ومحددون: "ابن إسحاق، ابن هشام، الطبري، ابن كثير" وجميعهم خضعوا بشكل وبآخر لدراسة شخصياتهم، بحيث أن رواية هذه السيرة لا يمكن أن تقبل من أي كان، عل عكس السيرة الشعبية.

ب) نظرا لقداسة الشخصية التي تناولتها السيرة النبوية، فإن أحداثها والمعلومات الواردة فيها قد خضعت لدراسة وتمحيص جيدين، يجعلها حتما تتدرج ضمن إطار التاريخ ـ الديني خصوصا ـ مما يجعلها "مقدسة" بشكل أو بآخر، ليس بنفس قداسة القرآن الكريم وكتب الحديث، إنما مقدسة على كل حال، لأنها تدخل في إطار السنة النبوية الشريفة. وقد يساعدنا الاستشهاد التالي على فهم الفكرة أكثر ((وقد دس في كتب السيرة الكثير من الأخبار الباطلة، خاصة فيما يتعلق بحياته صلى الله عليه وسلم، في مكة قبل البعثة وبعدها، ولعل المبرر لإيرادها كما اشرنا هو تقديس شخصية الرسول وحبه. فكان هذا السبب مانعا لنقد تلك

[22] ـ ميرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، تر: نهاد خياطة، دار كنعان، دمشق، 1991، ص 13.

الأخبار وتنقيتها مما علق بها من مرويات واهية، وهي إلى الأدب وفن القصص أقرب منها إلى الأخبار الصحيحة، بيد أن علماء السيرة منذ ابن إسحاق حتى اليوم، يقدمون كتبهم في الصورة التي كانوا يرتضونها لهذه السيرة، فهذا يفضل بعض الأحداث عمدا، والآخر يذكرها باختصار...، إذ تبدو شخصية الرسول في هذه الكتب بين كونه إنسانا واعتباره نبيا، أو توفق بين نبوته وإنسانيته، أو تجنح إلى اعتباره نبيا فتؤلهه وتقدسه، أو تجعل منه عبقريا لا غير))[23].

لا يعني هنا التلميح إلى أن السيرة النبوية هي سيرة أسطورية، ولكن إذ نستثنيها من حقل السيرة الشعبية العربية، نشير إلى طابع القداسة الذي يحتويها: فرواتها معروفون وهي تروي سيرة الشخص الأكثر قداسة في الإسلام رواية تاريخية. على عكس السير الشعبية العربية الأخرى التي لا تحمل بين طياتها أي نوع من القداسة.

إذا، نحن هنا أمام مفهوم مبدئي للسيرة الشعبية: هي ـ من حيث الشكل ـ قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي، وتحافظ عل ثباتها ـ كوحدة دلالية ـ عبرة فترة طويلة من الزمن ـ الزمن "الحالي" الخطي ـ الممتد من الماضي فالحاضر فالمستقبل. وهي مجهولة المؤلف، ويمكن اعتبارها نتاج خيال شعبي غالبا، الإنسان هو بطلها الرئيسي، قد تتضمن السيرة معطيات دينية، ولكنها لا تؤلف بالأساس لتجيب على أسئلة "الأصول"، بل لتسرد وقائع سيرة شخص ما، أو أشخاص متعددين. وهي قصة طويلة حجما، وإلا تحولت إلى حكاية شعبية، وهي قصة منزوعة القداسة بالضرورة.

هذا مفهوم مبدئي جدا، مشتق من مفهوم الأسطورة، ويحتاج إلى تدقيق ودراسة وبحث. إذ يمكن التساؤل هنا: ما الفرق بين السيرة الشعبية والحكاية الخرافة•؟ ماذا عن عنصر الغريب والعجيب في السيرة؟ ما مدى ارتباط السيرة بالتاريخ؟ وأسئلة أخرى كثيرة.

سادسا ـ بين السيرة الشعبية والحكاية الخرافية:

فلنبدأ الإجابة عن هذه الأسئلة مع ديرلاين: ((وعلى هذا فان الحكاية الشعبية والخرافية وأسطورة الآلهة وحكاية البطولة تتألف في عمومها من نفس الموضوعات. ومن ثم فان الفرق بين الأنواع المختلفة للرواية الشعبية لا يتمثل في الموضوع ذاته، فلا يحق لنا أن نتحدث عن موضوعات الحكاية الشعبية وموضوعات الحكاية الخرافية وهكذا، وإنما يجب أن تقوم التفرقة على أسس أخرى.))[24].

يبدو أن ديرلاين جانب الصواب حين ضم أساطير الآلهة إلى مجموعة الحكايات الشعبية والخرافية والبطولية على مستوى الموضوع، إلا أنه يقترب من الصحة عندما يقول بتقارب الموضوعات في هذه المجموعة،

---

[23]ـ علي العربي، أضواء على السيرة النبوية: قراءة نقدية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1995، ص11، 12.

• - الخرافة لغة: " الحديث المستملح من الكذب ". – ابن منظور، لسان العرب، مج 9، مادة (خ ر ف)، ص 65.

[24]ـ فريديريش فون ديرلاين، الحكاية الخرافية: نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها، تر: إبراهيم نبيلة، مكتبة غريب، مصر، 1959، ص139.

ويبدو أنه ركز على التعريف بالقوانين الشكلية للحكاية الخرافية، مقارنا إياها ـ بتوسع ـ بالحكاية الشعبية خاصة، وبالرغم من أن تحليله لم ينته على شكل نقاط واضحة نظريا، ورغم أنه يربط الحكايات بالإطار الحضاري الذي جمعت منه فإننا نستطيع الاستفادة من بعض الحدود التي استخدمها لتمييز الحكاية الخرافية عن الحكاية الشعبية:

1 – أن للحكاية الشعبية بنية بسيطة، أما الحكاية الخرافية فهي مركبة ذات شكل معين. فهي في العموم لا تؤخذ مأخذ الحقيقة، في حين أن الأولى تؤخذ هذا المأخذ.

2 – أن الحكاية الخرافية بكل ما فيها من عناصر تعد أدبا، أما الحكاية الشعبية فهي تمتزج بالواقع الحقيقي في أعمق أعماقه، وليس لها طابع أدبي صرف.

3 – أن الحكاية الشعبية تصور الإنسان الوحيد، الذي يتصل بالعالم الآخر وكثيرا ما يخضع له، أما الإنسان في الحكاية الخرافية فيتصل بمحض اختياره بقوى العالم الآخر. والحكاية الخرافية ذات طريقة تجريدية في العرض، كما أنها تسمو بالموضوع والصور إلى درجة المثالية، أما الحكاية الشعبية فحسية، تصور فيها العوالم الأخرى في دقة وتفصيل. وهي لا تحكي عن العالم الآخر من أجل أن تثير في النفوس تصورا له كما هو الحال في الحكاية الشعبية، وإنما نجد في هذا العالم القوى التي تكون مساعدة أو معادية للبطل، وأن تكن لها وظيفة محددة دائما، وهي أن تقود البطل إلى الهدف المحدد من قبل.

4 – أن الحكاية الشعبية جادة في طابعها، أما الحكاية الخرافية فهي تتحرك بين ما هو جاد وما هو هزلي.

ويبدو أن هذه المحددات يمكن تلخيصها في فكرة رئيسية حاور فيها ديرلاين باحثا آخر اسمه "ماكس لوتي". إذ نورد عن "لوتي" الاقتباس التالي: ((الحكاية الخرافية لا ترتبط بالآلهة أو الأرواح العلوية بالطريقة التي ترتبط بها الحكاية الشعبية. إن الحكاية الشعبية تعرف كائنات العالم الآخر من شياطين ومردة وسحرة إلى غير ذلك. وفي استطاعة الإنسان فيها أن يتصل بشخوص العالم الآخر، في حين أن الأمر في الحكاية الخرافية على خلاف ذلك، فهي وان كانت تحكي كذلك عن المردة والسحرة والأقزام، فإنها لا تنشئ علاقة مع عالمنا الممكن إدراكه، إذ أنها ذات بعد واحد. وهي كذلك لا تعرف التركب المنطقي الدقيق، كما أن شخوصها غير مجسمة، بلا عالم داخلي أو خارجي، بل ينقصها كذلك عالم المشاعر، وتظل المشاعر والروابط وصلة القربى ذات مغزى إذا كانت هناك ضرورة لاستخدامها في سياق الحكاية. حتى العنصر الزمني لا تعرفه الحكاية الخرافية، كما أن الحكاية الخرافية لا تحتمل أي تصوير وزخرفة أو تعليق ينتشر في أثنائها. وكلما ازداد سرد الحكاية الخرافية وضوحا، كان ذلك ضمانا لوصولها إلى هدفها وتأكيدا لأصالتها.))[25]. ثم قال: ((قصاصي الشرق يميلون كثيرا إلى زخرفة الحكاية الخرافية وتصويرها، وكذلك يصنع بعض القصاص الألمان في العصر الحاضر))[26].

---

[25]ـ نقلا عن: فريديريش فون ديرلاين، الحكاية الخرافية: نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها، تر: إبراهيم نبيلة، ص65-66.

[26]ـ المرجع نفسه، ص 66.

وهذا ما يتفق إلى حد ما مع وجهة نظر طرحها الباحث فراس السواح، الذي قسم الحكايات إلى: حكاية خرافية. وهي حكاية ((تقوم على عنصر الإدهاش وتمتلئ بالمبالغات والتهويلات، وتجري أحداثها بعيدا عن الواقع حيث تتحرك الشخصيات بسهولة بين المستوى الطبيعاني المنظور، والمستوى فوق الطبيعاني، وتتشابك علائقها مع كائنات ما ورائية متنوعة مثل الجن والعفاريت والأرواح الهائمة))[27]. وحكاية بطولية:((تختلف عن الخرافة في أمرين: أولهما أن أحداثها أقرب إلى الواقع رغم المبالغة والتهويل. وثانيهما، وهو الأهم، أن البطل فيها يشكل صورة مثالية عن الإنسان وعن ما هو إنساني، وهي تثير الرغبة في السامع إلى تحقيق هذه الصورة المثالية... وأبطالها بشر عاديون يتحركون في جو إنساني، وأعمالهم هي نموذج سام ومتفوق لما يمكن للأفراد أن يطمحوا إليه...))[28].

ويورد هنا مثالين لتوضيح الفرق بين الخرافة والحكاية البطولية ((وفي الخرافة العربية نجد سيف بن ذي يزن يصرع عشرات الجن بسيفه الذي انتهى إليه من سام بن نوح، ويقضي على الغيلان في واديهم بريشة ديك مسحور، وتلتقطه العفاريت الطائرة في الهواء كلما احكم عليه الأعداء حصار.))[29]. بينما يسوق مثال عنترة بن شداد كمثال عن القصص البطولي. ثم ينتقل إلى صنف آخر وهو الحكاية البطولية الإخبارية التي تعتمد على عدد من الواقع التاريخية، مثل الحروب الطروادية، وتغريبة بني هلال في الأدب الشعبي العربي.

ثم ينتقل إلى الحكاية الشعبية التي يقول عنها: ((إن ما يميز الحكاية الشعبية بشكل رئيسي عن الحكاية الخرافية والحكاية البطولية هو هاجسها الاجتماعي. فموضوعاتها تكاد تقتصر على مسائل العلاقات الاجتماعية والأسرية منها خاصة. والعناصر القصصية التي تستخدمها الحكاية الشعبية معروفة لنا جميعا. وذلك مثل زوجة الأب الحقودة ... أو غيرة الأخوات من أخيهم الأصغر المفضل لدى الأب. والذي تجتمع له خصائص الشجاعة والنبالة في مقابل الخسة والحسد والغيرة لدى أخواته. وما إلى ذلك، والحكاية الشعبية واقعية إلى أبعد حد وتخلو من التأملات الفلسفية والميتافيزيقية، مركزة على أدق التفاصيل وهموم الحياة اليومية. وهي رغم استخدامها لعناصر التشويق، إلا أنها لا تقصد إلى إبهار السامع بالأجواء الغريبة أو الأعمال المستحيلة، ويبقى أبطالها أقرب إلى الناس العاديين الذين نصادفهم في سعينا اليومي، ففي مقابل القوة الخارقة للبطل في الحكاية البطولية وتصرفاته الفروسية، فان البطل في الحكاية الشعبية يلجأ إلى الحيلة والفطنة والشطارة للخروج من المآزق والتغلب على الأعداء. وبنية الحكاية الشعبية هي بنية بسيطة تسير في اتجاه خطي واحد، وتحافظ على تسلسل منطقي ينساب في زمان حقيقي، على عكس الحكاية الخرافية ذات البنية المعقدة التي تسير في اتجاهات متداخلة ولا تتقيد بزمان أو مكان حقيقيين))[30].

---

[27]- فراس السواح، الأسطورة والمعنى،ص 15.

[28]- المرجع نفسه، ص 16.

[29]- المرجع نفسه، ص 15.

[30]- المرجع السابق، ص 17، 18.

بعد هذا كله يصل السواح إلى نتيجة مشابهة لكثير من النتائج التي توصل إليها آخرون وهي: ((إن الحدود بين هذه الأجناس الأدبية التي صنعناها خارج زمرة الميثولوجيا، ليست على درجة كافية من الدقة والوضوح))[31].

خاتمة:

يبدو أن مفهوم السيرة الشعبية لا يخرج عن ما طرح من مفاهيم، رأينا بعضها هنا رغم أنه يجب أن يكون هناك تعريف أو مفهوم واضح ومحدد لصنف قائم بذاته في الأدب العربي هو السيرة الشعبية. لذلك يمكن اقتراح المفهوم التالي:

السيرة الشعبية هي ـ من حيث الشكل ـ قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي وتحافظ عل ثباتها ـ كوحدة دلالية ـ عبر فترة طويلة من الزمن، الزمن "الحالي" الخطي الممتد من الماضي فالحاضر فالمستقبل، وهي مجهولة المؤلف، ويمكن اعتبارها نتاج خيال شعبي غالبا، الإنسان هو بطلها الرئيس، وقد تتضمن السيرة معطيات دينية، ولكنها لا تؤلف بالأساس لتجيب على أسئلة "الأصول"، بل لتسرد وقائع سيرة شخص ما يكون بطل السيرة الأوحد، بالإضافة إلى أشخاص متعددين تتفاوت أهميتهم حسب قربهم من البطل. وهي تحتوي أساسا تاريخيا يقوى ويضعف حسب السيرة، وحسب الظرف الحضاري المقوم الذي وجدت فيه، وهي قصة منزوعة القداسة بالضرورة. وتحتوي على مبالغات تبدأ من مقدرة البطل على قتل عشرة مقاتلين بضربة سيف واحدة مثل عنترة بن شداد لتصل إلى المشي فوق الماء بواسطة خاتم مطلسم كما في سيرة سيف بن ذي يزن، وهي قصة طويلة حجما ـ بالضرورة ـ وإلا تحولت إلى حكاية شعبية، كما أن السيرة الشعبية في الإطار الحضاري العربي، تختلف عن أنواع أخرى من السير: كالسيرة الشخصية، السيرة النبوية، المناقب والتراجم وسير الأبطال والقادة المعاصرين.

---

[31]ـ المرجع نفسه، ص 18.